الفصل السادس والعشرون

نصر على...

عند عتبة بوابة الكلية، كانت الأحلام تتراقص أمام عينيها دائماً، تغازل فكرها، وتحتضنها بكل شوق، فتسعى نحوها، ضياؤها يمنحها الأمل ، ويهبها القوة للمضي قدماً رغم كل عقبة قد تعترض دربها، انعكاسة شعاع الشمس من المبنى يجعل وجهها يشرق بابتسامة التفاؤل دائماً، إن كل ظلمة للعناء لا بد أن تختفي وتتفتق عنه نور الطمأنينة بين ثناياه.

ما أن دلفته حتى رأت سحر وصفاء وسوسن وندى في انتظارها، سلمت عليهن في ابتسامة وسرور، ثم مضين في طريقهن نحو القاعة، حين قالت سوسن في ابتسامة:

-هل علمتِ بما جد مع سحر يا ضياء؟

هزت رأسها وهي تقول:

-لا، وماذا حدث؟

قالت سحر في ارتباك:

-ليس هذا وقته يا سوسن.

اتسعت ابتسامة سوسن حين رأت ارتباكها وهي تقول:

-بل وقته يا سحر، أم أنك لا تريدين أن أخبر ضياء؟

زاد ارتباكها ولم تعقب، فعادت سوسن تلتفت لضياء وهي تقول:

-لقد تمت خطبة سحر ليلة أمس.

هتفت ضياء في فرح وهي تقول:

-حقاً يا سحر؟ لِمَ لم تخبريني ؟

بدا الخجل على وجهها رغم أنه لم يظهر على وجهها كثيراً بسبب النقاب ، اكتفت بهز رأسها، لحظتها عانقتها ضياء بفرح مهنئة وهي تقول:

-مبارك يا عزيزتي، ألف مبارك.

ثم غمزت بعينها وهي تقول:

-من سعيد الحظ هذا ؟

علت وجوه الفتيات الابتسامات وهن ينتظرن إجابة سحر التي ردت بتلعثم وخجل:

-إنه ... أحد أبناء جيراننا.

هتفت ندى:

-مبارك سحر، لاشك بأنه يراك كل يوم و...

زادت حمرة الخجل على وجهها رغم أنها حاولت أن تقاطع كلامها بقول حزم:

- أُصمُتِ يا ندى.

تضاحك الفتيات من زيادة خجلها الذي سبب لها ارتجافاً واضحاً، ارتعاشة القلب من الفرط السعادة كانت تبان على الجسد، وقالت لها سوسن وهي تربت على كتفها:

-أدام الله سعادتك يا رفيقتينا الغالية.

شكرتهن سحر بامتنان وبنفس متقطع، ثم قالت صفاء:

-ما رأيكِ بتهنئة لك نعلقها لأجلك بلوحة إعلانات الطلاب؟ أريد كل من في الكلية أن يعلم بهذا الخبر السار.

هزت رأسها وقالت محاولة إبعاد خجلها:

- ليس لدي مانع.

ضحكت سوسن وهي تقول:

-لا ما نع لديكِ وأنتِ خجلة من مجرد حديثنا فقط، فما بالك لو صار الخبر حديث الطالبات؟ مؤكد بأنكِ لن تأتي أبداً إلى هنا.

عاد الفتيات يتضاحكن ويداعبنها ليفلتن الاتزان منها وتغرق في الخجل لحوارهن، أما ضياء فقد ظلت تتأملهن بصمت والابتسامة على وجهها وهي ترى السعادة في عيني سحر، لا يمكن لها أن تحظى بهذه السعادة ذات يوم مع قبح وجهها، من سيلتفت إليها أو حتى يفكر في الارتباط بها، لم تكن إلا موضعا للسخرية منذ أول يوم دلفت فيه إلى الكلية، كادت أن تتخيل نفسها للحظة ترتدي ذلك الفستان الأبيض التي تحلم كل فتاة في مثل سنها أن ترتديه وأن يهنئها الجميع بقدوم شريك السعادة لدربها، إلا أنها نفضت سراب الخيال البهيج بسرعة وعادت للواقع، لن تأمل في شيء إلا إذا قدرت ما سيؤول إليه مصير العملية التي اعتزم خالها أن يسهل أمر إجرائها لها مع أن سنة قد مضت وصارت الندبة مجعدة داكنة ثابتة لم تتغير، كان مصير مستقبلها هذا مجهولا.

هي على كل حال ستسافر إلى مدينتها وستلتقي بكل أهلها هناك، فهل ستحظى بالقبول من أحدهم وهي بهذه الهيئة وهي لم تحظ من الغرباء إلا بالسخرية؟ تمتمت في نفسها محاولة إبعاد تلك الأفكار:

-علي ألا أفكر في هذا الأمر الآن وأشغل نفسي بما هو حاضر و أترك المستقبل لمشيئة الله.

وأوقفت تفكيرها حين هتفت بالفتيات قائلة:

-اليوم لدينا تجربتان بالمعمل، لابد أن نقوم بها قبل اكتظاظه بالطلاب.

قالت سحر وهي تتنفس الصعداء في سرور لتغيير ضياء لموضوع خطوبتها وإنقاذها من دوامة الخجل:

-لقد أبلغت الأستاذ قاسم مسؤول المعمل بذلك، وأيضا أخبرت الدكتور سامي بأننا سنجريها أثناء المحاضرة واستأذنت منه لأجلها، كل الأمور معدة كما خططنا لها.

ابتسمت ضياء وقالت :

-حسناً، سنقوم بها خمستنا، لابد أن ننجزها بأسرع وقت و بإتقان.

واتفقن على ذلك، مع بداية الدوام توجه مباشرة إلى المختبر مرتديات معاطفهن البيضاء، وضياء هي من تقودهن وتشرف عليهن وتدير التجربة، كان المختبر بالطابق الأرضي من مبنى الكلية، فقد كان طلاب الدفعة يعملون كمجموعات وتقع على عاتق القائد الانتباه لمعايير المحاليل المواد الكيميائية المستخدمة وتكون محددة وفق التجربة المراد إنجازها

ويحددها لهم الدكتور سامي، قام الفتيات الخمس بتجربتهن، وحين أوشكت عقارب الساعة على الاقتراب من الثامنة والنصف دخل قاسم وهو يقول لهن:

-ألم تنتهين يا فتيات؟ وقتكن على وشك النفاذ.

فردت عليه ضياء:

-نوشك أن ننتهي أستاذ قاسم، دقائق فقط..

فسمح لهن إلى أن انتهين ودون النتائج في أوراقهن، فقالت لهن ضياء:

-ستتبقى التجربة الثانية وسنجريها بعد مناقشة الدكتور بنصف ساعة.

و هز رفيقاتها رؤوسهن مؤيدات ثم عدن سريعاً إلى القاعة لمناقشة ما قمن به، في تلك اللحظة، كان طارق وناصر و محمود خارج قاعة المحاضرة يراقبون المختبر من بعيد حين خرج الفتيات، بينما كان صبري و وليد من جهة أخرى يراقبون المختبر كذلك فقد تعمدوا التأخير ليتم طردهم خارج من المحاضرة ويخلو لهم المكان لانشغال الطلاب بالمحاضرة الأولى.

و حين رأى طارق ضياء وهي تحادث رفيقاتها بين الابتسامة والجد تذكر ابتسامتها له في ذلك اليوم ثم معاملتها لأخته، ثم اطمئنانها عليه، شعر بألم في قلبه وهو يتذكر بأن ضياء سترحل وسينسى معها كل شيء حدث معها، تلبك وهو يقول في نفسه:

-ماذا يحدث لي الآن؟ لم هذا التردد الآن وقت التنفيذ رغم كل ما أخبرني به رفاقي عنها وبعد أن قررتُ إبعادها عن دربي؟ لم أنا مرتبك حتى من رؤيتها.

استيقظ من شروده حين قال محمود هامساً له ولناصر:

-سيقوم صبري ووليد بإشغال الأستاذ قاسم بينما ندخل نحن الثلاثة وتتخلصان من كل المحاليل التي استخدمتها مجموعة ضياء فقط.

فقال ناصر بخبث:

-وبهذا تلقى المسؤولية على ضياء ورفيقاتها لإهمالهن ويغرمن على ذلك.

هز طارق رأسه مؤيداً، فقال ناصر وهو يمسك بكتفه بقوة حين رأى الارتباك في عينيه:

-كن قوياً يا طارق، لن يحدث شيء، وستدفع ضياء إزاء اهانتها لك.

لم يقل شيئاً بل هز رأسه مؤيداً ما قاله مرة أخرى محاولاً إبعاد ارتباكه، لحظتها رأى الثلاثة صبري ووليد يدخلون إلى المعمل ثم يخرجان منه برفقتهما الأستاذ قاسم الذي قال في قلق:

-وأين تركتما طارق؟

فأجاب وليد في قلق :

-في المصلى؛ لكنه لم يستيقظ حتى الآن ولا نعرف السبب.

فقال صبري في قلق مماثل:

-أستاذ، أرجوك ساعدنا، لا ندري ما به، أخشى أن يكون شيء قد أصابه بسبب العملية الأخيرة التي أجراها.

ازداد قلق قاسم، فالجميع يعلم ما أصاب طارق في الآونة الأخيرة، فأسرع معهما، بينما جعل صبري الباب شبة مغلق مستغلاً قلق أستاذه ليندس طارق ورفيقيه من ورائهم ويدخلون المعمل خلسة.

كان المعمل قاعة شبة واسعة بها باب واحد وأطلت عليها أربعة نوافذ زجاجية متوسطة الحجم، ويتوسطها ثلاث طاولات معدة لإجراء التجارب ملتصقة بالأرض وبها مغسلة وموقدان خاصة بكل واحدة، وعلى بعض الجدران عددٌ من الرفوف ليكون تحتها طاولات جانبية كذلك وضعت عليها بعض الأجهزة كما حوت دواليب بها بعض المواد الكيميائية كذلك، ودولابان حديديان بأبواب زجاجية حوى أحدهما على الأدوات المستخدمة من دوارق وقوارير وغيرها، وآخر حوى بعض المواد الكيميائية.

حين دخل الثلاثة، ظل محمود قرب الباب مراقباً في حذر، بينما أسرع طارق وناصر يقتربان من ورقة التجربة السابقة المعلقة بلائحة التجارب الخاصة بهم ليقرأها، كان أهم محلول في التجربة هو حمض النيتريك، فوضع طارق هاتفه الذي كان بيده على الطاولة ثم أسرع بعد ناصر نحو الدولاب الأرضي والتقط قوارير الحمض بعد تردد، ثم سكبها في المغسلة واحدة بعد الأخرى وناصر يفعل مثله، وهو يتذكر ما قاله محمود:

-سينتهي كل شيء وستعود كما كنت.

فقال في نفسه:

-أتمنى فعلا أن أعود كما كنت وأنسى كل شيء.

واستيقظ من شروده على أنة ألم خافتة صدرت من ناصر فنظر إليه، حين نقل آخر قارورة كادت تنزلق من يده فانسكب بعض ما بها على الأرض على طول خط سيره ولسعت بسائلها أطراف أصابعه، وفي أثناء انشغالهما لما حدث، أسرع محمود يبتعد من الباب ويقول:

-أحدهم قادم.

أسرع الثلاثة بالاختباء، ثم رأوا أحد أساتذتهم يدخل وهو يقول متلفتاً حوله:

-أين ذهب قاسم؟

ثم سمعوا صوت إغلاق الباب، فأسرع الثلاثة في الخروج بعد لحظات، لم يكن هناك أي شخص بالممر، فالجميع بقاعات الدرس، تنفسوا بعمق، ثم ابتسم طارق لنفسه وقال:

- و أخيراً، نجحت وسينتهي كل ما يؤرقني قريباً.

وابتسم محمود مثله، بينما كان ناصر يهز يده في ألم فانتبها له، لقد أصيب بحرق طفيف في أطراف أصابعه، قال محمود في ضيق:

-غبي، كيف سمحت بحدوث ذلك؟ عليك الذهاب إلى المستشفى.

زفر ناصر في ضيق وقال:

-لا أحتاج لذلك، سأذهب لأغسل يدي وأحضر مرهماً له، المهم أن خطتك نجحت.

ثم ابتعد عنهما، بينما قال محمود لطارق:

-سأنتظرك مع صبري ووليد بمقصف الكلية حتى تنجح خطتهما في البحث عنك، فليذهب الدكتور سامي ومحاضرته إلى الجحيم.

هز رأسه مؤيداً وهو يبتسم له، ثم اتجه إلى المصلى وهو يفكر فيما أقدم عليه، ستغرم ضياء على عدم اتزانها لما استخدمته مع فريقها في التجربة ولن تستطيع دفع شيء وبهذا ستوقف عن دراستها وترحل ويعود كل شيء كما كان قبل قدومها، توقف للحظات وهو يشعر بشيء يخز قلبه، قال وهو يضع يده على صدره:

-لِم أشعر بالحزن والألم هكذا؟ هل لما سيصيب ضياء ورفيقاتها... أم ... لأني لن أراها بعد ذلك؟

ثم قال لنفسه بحزم:

-لا يهمني ما سيحدث بعد الآن يجب علي نسيان كل ...

ثم قطع عبارته حين أقبل عليه قاسم ووليد وصبري، فسأله الأستاذ في قلق:

-هل أنت بخير يا بني؟

و أسرع يمسك به وهو يقول:

-كان يجب عليك أن تبقى في المصلى، لنذهب للمستشفى.

ابتسم وليد وصبري ابتسامة سخرية وهما يسيران خلفهما، بينما قال طارق مبتسما ابتسامة صغيرة:

- أنا بخير يا أستاذ وإلا لما غادرت مكاني.

-أأنت متأكد؟

هز رأسه مطمئناً إياه، فقال وليد متظاهراً بالقلق:

-أرعبتنا.

رد طارق:

-لا تقلقوا رجاء أنا بخير.

قال صبري وهو يمسك بطارق ويقول للأستاذ:

-سنرافقه للمقصف، وإن جد شيء سأخبرك، لا تقلق أستاذ، شكراً لمساعدتك.

فابتسم الأستاذ و تركهم، بينما أسرع الثلاثة نحو المقصف، فابتسم وليد وهو يشير لطارق، فرد عليه بنجاح عمله، ثم قال صبري وهو يرى بأن الطلاب قد غادروا القاعات مع انتهاء وقت المحاضرات:

-لقد انتهت المحاضرة لنكمل نزهتنا اليوم....

وما أن سار معهم خطوات حتى تذكر أمراً فارتبك وهو يدس يده في جيب بنطاله، لم يجد هاتفه، عاد يبحث عنه لكنه لم يجده فارتعب، لقد نسيه بالمعمل، عاد مبتعداً، استغرب رفيقاه تصرفه، فقال لهما:

-اسبقاني وسألحق بكما.

أسرع يعدو بأُقصى ما يستطيع، إن وُجد هاتفه وهو ليس لديه أي عمل أو تجربة هناك فسيكون مشتبهاً فيما سيقع لضياء ورفيقاتها، ازداد رعباً وهو يفكر في ذلك؛ لكنه ما كاد يصل درجات الدور الأرضي الذي به المعمل حتى سمع صرخة عالية مدوية، تلاها صوت قوي كان أشبه بصوت انفجار.

بعد مضي نصف الساعة المحددة، عادت ضياء ومن معها إلى المختبر، واتجهن مباشرة إلى لائحة التجربة وبدأن بقراءة ما فيها، قالت سحر لضياء:

-أنتِ اقرأي علينا أسماء الأدوات المطلوبة ونحن سنجهزها.

- حسناً.

أسرعت سحر وزميلاتها الثلاث مبتعدات عنها، وتوجهت نحو الموقد لتشعله، بينما أسرعت ندى وسوسن في إحضار الأدوات من الدولاب، واتجهت صفاء لانتقاء المحاليل المطلوبة وارتدت قفازيها لذلك، وضياء تلقي عليهن ما يحتجن لتجربتهن، قامت سحر بفتح موقد الإشعال لكنه لم يعمل فاستخدمت عود ثقاب وأشعلته في اللحظة التي أحست فيها بحرارة أسفل قدمها نظرت نحو الأسفل، فذعرت، قالت صفاء:

-سحر، ما هذا السائل الذي تحت قدمك على الأرض؟

أجابتها برعب:

-إنه، إنه يذيب حذائي.

ورفعت قدمها بسرعة حين أحسته وقد نفذ عبر جزء من حذائها ولسع أخمص قدمها والتهم طرف عباءتها احتملت الألم وهي تقوم بذلك؛ لكن الأمر لم يقف هنا حين لسع إصبعيها عود الثقاب المشتعل، وقد التهمته النار ليفلت من بينهما وتهوي الشعلة نحو الأرض لتشعل السائل وطرف عباءتها، صاحت مذعورة، ارتعب الفتيات الأربع لما حدث والنيران لم تتح لهن فرصة، امتدت على طول وجود الحمض ملتهمة كل ما في طريقها مقتربة من أحد

الطاولة التي كان بها بعض المواد الكيميائية، ازداد خوفهن حين اشتعل الدولاب بكل ما فيه بعد لحظات محدثاً صوتاً صوت الانفجار، لتتقد النار بكل سرعة ممتدة على كل ما هو قابلٌ للاشتعال في طريقها، صارت النيران حاجزاً بين ضياء ورفيقاتها الأربع وارتعبت لما حدث وهي ترى النار تمتد إلى قدم سحر وطرف عباءتها، وأسرع زميلاتها الثلاث نحوها، ثم حال امتداد النار السريع دون رؤيتها لما فعلن زميلاتها فصرخت في رعب، أما الفتيات فبالرغم من خوفهن، إلا أن ندى قامت بخلع معطفها الأبيض لتخمد النار من سحر، وصفاء وسوسن تجذبنها بعيداً؛ لكن اشتعال النيران ضاعف خوفهن وزاد ارتباكهن وبدأت تشتت تركيزهن وهي تلسعهن قليلاً فيحاولن الهرب منها وإنقاذ رفيقتهن.

في تلك اللحظة، دخل الأستاذ قاسم وفوجئ بالحريق يمتد في جدران المكان نحو كل ما قد يزيد في لهيبها وتلتهمه بشراسة و ألسنة اللهب تندلع بين طاولتين حيث سحر وزميلاتها، مر مسرعا و هو يناديهن، أسرعت ندى وسوسن إليه لتلفتاه، وأشار إليهما بالخروج ففعلتا، بينما أسرع نحو سحر وصفاء ليبعداها ويساعدهما على الخروج.

لم تمض سوى دقائق حتى أطل طارق من الباب وهو يلتقط أنفاسه لجريه، ذعر لما حدث حين خرجت ندى وسوسن، دخل وأسرع نحو النافذة القريبة منه ليخفف من الاختناق الذي بدأ يطغى على المكان بسبب الحريق ودخانه، حمل عدد من دلاء رمل قريبة منه وألقاها على النار، لمح صفاء تقف وتسند سحر إليها والجميع قد أصابتهم نوبة سعال من روائح المحاليل

المحترقة، فانتبه إلى أن الدولاب الذي أخذ منه الحمض هو المشتعل وخط النار كحاجز بوسط المعمل وممتد من جهته، تمتم في ذعر:

-هل... ناصر سبب هذا الحريق؟!

لحظتها رأى قاسم يساعد سحر التي كانت تشعر بالألم والاختناق وهو يحثها على الإسراع، وحين أخرجهما لحق بهم طارق، ورآه يجلس سحر على مسافة من باب المختبر ويسندها إلى جدارٍ بالممر، كان الفتيات قد أصبن بحروق خفيفة وكذلك قاسم الذي لم يكترث بما أصابه وأسرع يتصل بسرعة من هاتفه، قالت سوسن مذعورة:

- ضياء، أين هي؟

تطلع الفتيات إلى بعضهن في خوف، فقالت سحر في ألم:

-إنها بالداخل.

- يا إلهي!

ارتعب طارق لقولهن بل ارتجف، هل أراد إبعادها أم قتلها ورحيلها إلى الأبد؟ لقد ساعدته ولم يرد جميلها إلا بالإساءة، كيف أعماه غضبه لسخريتها وهو من كان يسخر منها دائماً؟

أسرع يعود إلى المختبر وهو يقول في نفسه مذعوراً:

-لن أسامح نفسي، لن أسامح نفسي إن أصابها شيء.

لكن قاسم أمسك به من ذراعه في تلك اللحظة وهو يقول وقد أنهى مكالمته:

-ستصل المساعدة، هيا لنخمد الحريق، أحضر أسطوانة الإطفاء.

إلا أن طارق قال صارخا في خوف وهو يحاول إفلات ذراعه:

-لا وقت لها، ستموت الفتاة في الداخل، دعني.

قاومه وهو يقول له في حزم:

- يا مجنون توقف، سنحاول إنقاذها معاً.

لكن طارق لم يستمع إليه بل انتزع ذراعه بالقوة، ودخل مقتحماً الدخان المتصاعد نحوه، تطلع الفتيات الأربع لبعضهن في ذهول واندهاش لتصرفه وشجاعته، هل ينوي إنقاذ ضياء وجميعهن يدركن كرهه لها؟

حين شب الحريق كانت زوبعة خبره قد عصفت بالجميع، أسرع الأساتذة في إخلاء المبنى من الطلاب، بينما أسرع بعض الأساتذة إلى مكان المختبر، ورأوا الفتيات الأربع وقد أصبن بحروق خفيفة وكذلك الأستاذ قاسم أشدهم إصابة كانت سحر، فتم نقلهم إلى المستشفى وأسرعوا في محاولة إخماد الحريق، في تلك اللحظة، سأل محمود ورفاقه عن طارق، وفوجئوا بخبر مساعدته للفتيات، قال صبري في ضيق وهو يهز رأسه:

-لم أعد أفهم طارق أبداً، ما حدث سيدين ضياء ومجموعتها.

ابتسم محمود ابتسامة مائلة وهو يقول في مكر:

-دعوه يفعل ما يريد، ستنجح الخطة أكثر من المتوقع.

وأسرع مع رفاقه خارجين من المبنى مع من خرج من الطلاب بسبب الحريق.

حين دخل طارق، اندفعت ألسنة الدخان نحوه، حرقت عيناه وخنقته فسعل لمدة، ثم كمم أنفه وفمه بيده بين لحظة وأخرى وهو ينادي على ضياء، كانت ألسنة اللهب قد استفحلت والأساتذة وبعض الطلاب يحاولون إخماد الحريق وراءه فلم يسمع إلا أصواتهم وأصوات إخماد النيران ولم يَرَ إلا النيران والدخان، وأخذ يخمد النار بأي دلاء رمل يصادفها أمامه، واستمر في ندائه حتى سمع صوت ضياء الباكي اقترب من مكانها.

رآها جالسة منكمشة في مكانها تبكي مرتجفة في خوف قرب لائحة التجربة، اقترب منها وهو يتأمل ملامحها الخائفة المرتجفة، كانت تلك هي الملامح التي أراد أن يراها منذ زمن، تمتم لنفسه:

-هل ظفر عليها الآن؟ ... لا، ما آل إليه الحال لم يشعره بحلاوة انتصاره أبداً؛ بل بفظاعة ما فعله مع رفاقه.

عقد حاجبيه وهو يقول لها في حزم:

-ضياء، ماذا تفعلين هنا؟ هيا انهضي.

لم تجبه بل حتى أنها لم تدرك وجوده ولا وجود أي شيء مما حولها، كانت تتخيل عالماً غير عالمها مع صوت الانفجار واندلاع الحريق، تراءى أمام عينيها نيران الحرب وأصوات الانفجارات والرعب الذي عاشته في حينها تحاصرها في كل مكان وهي تتمتم باسم أخيها ووالدتها وكأنها بقيت في ذلك الخطر لتواجهه لوحدها، تذكرت تلك القذيفة التي اندفعت

نحو منزلها ودمرت ما دمرته وأحرقت بنيرانها ما طالته قبل أن تفقد وعيها من الألم قوة الرمي التي ألقت بها أرضاً قبل أن ينقذها شادي لاحقاً.

لم تستيقظ من خيالاتها إلا حين سمعت صراخ طارق وهو يقول بصوت عالٍ:

-أتريدين أن تموتي هنا؟! هيا انهضي.

نظرت إليه ذاهلة قبل أن تدرك شخصه وانتبهت للخطر المحدق حولهما، تساءلت:

-ما الذي أتى به إلى هنا؟ هل أتى لينقذها وهو يكرهها كرهاً شديداً؟

هدأت روعها قليلاً مما كانت تتذكره، وحين كادت أن تنهض تحطمت أبواب الدولاب الحديدي الزجاجية بفعل الحرارة والنيران ساقطة كالرذاذ عليهما، فغطى الاثنان وجهيهما منه إلا أن الدولاب لحق بها ليتهاوى عليهما معاً.

*****